

التصوف بين السلفية والأشعرية

الدكتور : سعيد المكرم

جامعة مستغانم

ينحصر بحثنا هذا في تناول إشكالية مشروعية التصوف من منظورين متعارضين دينيا في إدراكهما لحقيقة التصوف . أما الموقف الأول ، فيمثله ما أشيع تسميتهم في عصرنا بالسلفية الوهابية الذين يؤسسون منطلقهم في النظر إلى المسائل الشرعية على مدونات ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم الجوزية قديما ، و على آراء أئمتهم في العصر الحديث ، و في طليعتهم محمد بن عبد الوهاب ، و محمد بن صالح العثيمين ، و عبد العزيز بن باز . و في الحقيقة ، فإن مرجعيتهم الدينية اعتقادا و فقها تترد إلى الإمام ابن تيمية بوصفه منظر السلفية الأكبر ، ممن يطلق عليهم تنزلا الأثرين و أهل الحديث* . وهو موقف في نسخته المعاصرة يدين التصوف بوصفه بدعة ، لا أساس لها في المنهج الإسلامي ، إلى حد تكفير أهله و أتباعه ، كما سيتبين لاحقا من هذه الدراسة .

أما الموقف الثاني ، فيمثله الخلف من أهل السنة والجماعة ألا وهم السادة الأشاعرة والماتريدية ، وفي مقدمتهم

حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، الذي كان أشعري العقيدة ، شافعي المذهب ، صوفي المسلك. ففقهاء الأشاعرة بلا استثناء لا ينكرون التصوف ، بل يستحسنونه إذ هو عندهم مدرسة روحية للسالك ، إلا ما علق به من بدع أو مفاهيم لا تمت إلى الإسلام بصلة كوحدة الوجود والحلول. وعموم الصوفية على المذهب الأشعري كما قرر ذلك القشيري (م. 465 هـ) في رسالته المشهورة الموسومة بالرسالة القشيرية*. وهذا لا يعني أننا لا نجد في الأثرين أنفسهم رجالا متصوفة ، وإنما الغالب على أهل التصوف هو تشيعهم للمذهب الأشعري. ولعل إقبال الأشاعرة على تبني التصوف منهجا في التربية و السلوك مرده كما يقول أبو حامد الغزالي: "أن الصوفية هم السالكون لطريق الله (تعالى)، خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من (نور) مشكاة النبوة ؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء

به «1 أي أن منهج أهل التصوف الأخلاقي والروحي نابع من مشكاة النبوة ، فلذلك يعدون التصوف رديفا للركيزة الثالثة في الإسلام ألا وهي الإحسان، لما ثبت في الحديث الصحيح المعروف بحديث جبريل، والذي نصه كالآتي :

«عن عمر (رضي الله عنه) قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبته إلى ركبته ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدق، قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال:

فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. ثم انطلق. فلبث مليا، ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». (رواه مسلم)

فلا غرو ، أن تتكامل الأبعاد الثلاثة في منظومة الوعي الأشعري : الإسلام في شريعته ، و عقيدته و منهجه السلوكي الروحي . و من هنا لم يكن ثمة تعارض بين الموقف الأشعري و الموقف الصوفي ، فالتوسط بين النقل و العقل عند الأشعرية وجد في المنهج الروحي الصوفي ذروة تلاحمه .

و إذا كان موقف الأشعرية محتضنا للتصوف في رحاب الشريعة إذ لا بد للصوفي أن يتفقه و إلا تزندق ، كما لا بد للفقيه أن يتصوف و إلا تفسق* ، فإن موقف السلفية الوهابية يبدو نقيض ذلك كله إذ يعدون التصوف دخيلا على الإسلام و بدعة استقدمها الصوفية من خارج دياره ، فعزوا الضلالة و الكفر إلى كل منتسب لهم . و لاستعراض موقفهم ذلك ، يكفي أن نطلع على الفتوى التي أدلى بها إمامهم محمد صالح العثيمين جوابا على سؤال متعلق بموقف الإسلام من الصوفية ، يقول :

« الصوفية كلمة قيل إنها مشتقة من الصفا وقيل إنها مشتقة من الصفوة وقيل إنها مشتقة من الصوف وهو الأقرب لأنهم كانوا إبان ظهورهم يرتدون الألبسة من الصوف تقشفاً وتزهداً والصوفية لها طرق متعددة تصل بهم أحياناً إلى الكفر الصريح حيث إنهم يصلون إلى القول بوحدة الوجود وأنهم لا يشاهدون إلا الرب ويعتقدون أن كل شيء مشاهد من آيات الله تبارك وتعالى فإنه هو الله ولا شك أن هذا كفر صريح ومنهم من يشذ عن الإسلام دون ذلك وهم على درجات متفاوتة وأنا أنصح السائل أن يقرأ كتاب «هذه هي الصوفية» للشيخ عبد الرحمن الوكيل رحمه الله لأنه يبين في هذا الكتاب ما كان عليه الصوفية الذين يدعون أنهم أهل الصفاء والمعرفة بالله عز وجل وهم في الحقيقة أجهل الناس بالله لأن أعلم الناس بالله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خلفاؤه الراشدون في هذه الأمة ثم التابعون لهم بإحسان هؤلاء هم أعرف الناس وكل من سلك سبيلاً غير سبيلهم فإن فيه من الجهل بالله بمقدار ما نأى به عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين2» .

إذن ، كما يظهر من هذه الفتوى ، فهو لم ينصف أحداً من الصوفية ، سواء من الذين يكشف ظاهر نصوصهم جنوحاً

نحو الحلول و وحدة الوجود أو أولئك الذين تجردت نصوصهم من هذه الأفكار ، فهم بالنسبة إليه إما كفار أو شاذون عن الإسلام ، ومن ثم فهم أجهل خلق الله بالله ، لأنهم - كما يتصور- هم مدعون للمعرفة الربانية، ولا يصدر عن في معرفتهم تلك إلا من تلقاء أنفسهم ، لا من هدي رسول الله - صلى الله عليه و سلم - ولا من هدي الخلفاء الراشدين ولا التابعين. هذا ما تفيده فتواه ، وفتاوى غيره من علماء الوهابية المعاصرين ، فهم عموماً يبدعون الصوفية في أحسن الأحوال ، ويكفرونهم في أسوأ الأحوال .

وأيا تكن آراؤهم تلك ، فهي بخلاف مواقف مراجعهم الكبرى ، و بخلاف الواقع الذي يشهد لصالح الصوفية ، لا عليهم . و فيما يأتي سنحاول استعراض أقوال أئمتهم الكبار ممن يعدون مراجع أساسية لهم ، ألا و هم شيخ الإسلام ابن تيمية و تلميذه ابن القيم الجوزية ، و آخر مؤسس حركتهم في العصر الحديث محمد بن عبد الوهاب في مسألة مشروعية التصوف :

موقف الشيخ ابن تيمية من التصوف :

مما لاشك فيه أن رأي ابن تيمية في الصوفية و التصوف القائم على التعظيم والتبجيل يعد موقفا صادما للسلفية الذين يحاولون بكل وسيلة خلعه من الانتساب إلى الصوفية . لكن الواقع الذي تشهد به كتبه وسيرته هو أنه كان صوفيا - كما يظهر من كتابه الفتاوى ، و من رسالة الفقراء و الصوفية . و قد دفن في مقابر الصوفية . من شهاداته للتصوف و الصوفية ، نقتطف ما يأتي من نصوص على سبيل التمثيل لا الحصر :

- « طائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا أنهم مبتدعون خارجون عن السنة ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم ، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ومن المنتسبين إليهم من

هو ظالم لنفسه عاص لربه وقد انتسب إليهم من أهل البدع
والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم
» 3 (الفتاوى ج 11 / ص 17) .

- « لفظ الفقر والتصوف قد أدخل فيه أمور يحبها الله
ورسوله فتلك يؤمر بها ، وإن سميت فقرا وتصوفا ؛ لأن
الكتاب والسنة إذا دل على استحبابها لم يخرج ذلك بأن تُسمى
باسم آخر . كما يدخل في ذلك أعمال القلوب كالتوبة والصبر
والشكر والرضا والخوف والرجاء والمحبة والأخلاق الحمودة . »
(الفتاوى « 28 / 29 ») .

- « فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية
أحوالا ومقامات أو منازل السائرين الى الله أو مقامات العارفين
أو غير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الإيمان
الواجب وفيها ما أحبه ولم يفرضه فهو من الإيمان المستحب
فالأول لا بد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار
أصحاب اليمين ومن فعله وفعل الثانى كان من المقربين
السابقين وذلك مثل حب الله ورسوله بل أن يكون الله ورسوله
أحب اليه مما سواهما بل أن يكون الله ورسوله والجهاد فى

سبيله أحب إليه من أهله وماله ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين والتوكل على الله وحده دون المخلوقين والإنابة إليه مع خشيته كما قال تعالى هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ومثل الحب في الله والبغض في الله والموالاتة لله والمعاداة لله» (الفتاوى « جزء 7 - صفحة 190).

-و قال يصف الجنيد وعبد القدر الجيلاني بأنهم أئمة الصوفية في (مجموع الفتاوى «ص. 369/8 »)

«و أما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء مثل الجنيد بن محمد و أتباعه ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي و توصية بإتباع ذلك , وتحذيراً من المشي مع القدر كما مشى أصحابهم أولئك وهذا هو الفرق الثاني الذي تكلم فيه الجنيد مع أصحابه , والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على إتباع المأمور وترك المحذور والصبر على المقدور ولا يثبت طريقاً تخالف ذلك أصلاً , لاهو ولا عامة المشايخ المقبولين عند المسلمين و يحذر عن ملاحظة القدر المحض بدون إتباع الأمر والنهي» .

- و قال في تعريف أنواع الفناء من مجموع الفتاوى (جزء 10 - صفحة 219) .

«فان الفناء ثلاثة أنواع نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء ونوع للقاصدين من الأولياء والصالحين ونوع للمنافقين الملحدين فأما الأول فهو الفناء عن إرادة ما سوى الله بحيث لا يجب إلا الله ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يطلب غيره وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال أريد أن لا أريد إلا ما يريد أي المراد المحبوب المرضي وهو المراد بالإرادة الدينية وكمال العبد أن لا يريد ولا يجب ولا يرضى إلا ما أَراده الله ورضيه و أحبه وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ولا يجب إلا ما يحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين وهذا معنى قولهم في قوله إلا من أتى الله بقلب سليم قالوا هو السليم مما سوى الله أو مما سوى عبادة الله أو مما سوى إرادة الله أو مما سوى محبة الله فالمعنى واحد وهذا المعنى إن سمي فناء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره وباطن الدين وظاهره » . أما النوع الثاني فهو الفناء عن شهود السوى وهذا يحصل لكثير من السالكين فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته وضعف قلوبهم عن

أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد لا يخطر بقلوبهم غير الله بل ولا يشعرون كما قيل في قوله وأصبح فؤاد أم موسى فارغا أن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها قالوا فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى وهذا كثير يعرض لمن فقمه أمر من الأمور إما حب وإما خوف وأما رجاء يبقى قلبه منصرفا عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره فإذا قوى على صاحب الفناء هذا فانه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن وهى المخلوقات المعبدة ممن سواه ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى والمراد فناؤها فى شهود العبد وذكره وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها» .

- وقال ابن تيمية يبرئ الصوفية عن عقيدة الحلول وينسبها لمن تشبه بهم وليس هو منهم: "م الصوفية المشهورون عند الأمة الذين لهم لسان صدق في الأمة لم يكونوا يستحسنون مثل هذا بل ينهون عنه ولهم فى الكلام فى ذم صحبة الأحداث وفى الرد على أهل الحلول وبيان مباينة الخالق مالا يتسع هذا الموضع لذكره وإنما يستحسنه من تشبه بهم ممن هو عاص أو

فاسق أو كافر فيتظاهر بدعوى الولاية لله وتحقيق الإيمان والعرفان وهو من شر أهل العداوة لله وأهل النفاق والبهتان والله تعالى يجمع لأوليائه المتقين خير الدنيا والآخرة ويجعل لأعدائه الصفقة الخاسرة والله سبحانه وتعالى أعلم» مجموع الفتاوى (جزء 15 - ص. 427)

- و يعترف ابن تيمية بالدس في كتب الصوفية في مجموع الفتاوى (ج11. ص74-75) ليس أحد من أهل المعرفة بالله، يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات، ولا اتحاده به،«وإن سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب، اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية » .
و ثمة أقوال كثيرة لابن تيمية في الثناء على الصوفية ، نكتفي منها بذلك القدر .

موقف ابن القيم الجوزية من التصوف :

أما ابن القيم ، الذي كان تلميذا لشيخه الصوفي إسماعيل الهروي ، فلم يخالف أستاذه ابن تيمية في التنويه

بالتصوف و أهله . و لعل كتابه «مدارج السالكين » هو خير برهان على ذلك . و فيه من تعظيم التصوف و أهله ما يكفي دليلا على رد مزاعم السلفية من كون التصوف بدعة . و فيما يأتي نصوص مقتطفة من هذا الكتاب على سبيل التمثيل تشهد للتصوف و تجل مقامه :

- قال ابن القيم في مدارج السالكين (ج2 ص52) في التأدب مع شيخه الهروي : «والله يشكر لشيخ الإسلام «الهروي» سعيه ، ويعلي درجته ، ويجزيه أفضل جزائه ، ويجمع بيننا وبيته في محل كرامته ، فلو وجد مريده «ابن القيم» سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه ما فعل . كيف وقد نفعه الله بكلامه، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه ، وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناما . وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضوع ، فمن كان عنده فضل علم فليجذبه أو فليعذر ولا يبادر إلي الإنكار ، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان وهو يقول له «أحطت بما لم تحط به» وليس شيخ الإسلام أعلم من نبي الله سليمان وليس المعترض بأجهل من هدهد ، والله المستعان وهو أعلم .»4

- وقال في كتابه مدارج السالكين (ج 1 ص 135)
«أنهم [أي الصوفية] كانوا أجل من هذا وهمهم أعلى
وأشرف إنما هم حائمون على اكتساب الحكمة والمعرفة و
صهارة القلوب وزكاة النفوس و تصحيح المعاملة » . - أما في
(ج 2 ص 307) فنجده يقول : «التصوف زاوية من زوايا السلوك
الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة
الرفيق الأعلى , ومعية من تحبه , فان المرء مع من احب . كما
قال سمعون : ذهب المحبون بشرف الدنيا والاخرة , فان المرء
مع من أحب، والله اعلم .»

- و قال ابن القيم في كتابه «طريق الهجرتين (ص 261-

(260

«ومنها أن هذا العلم «التصوف» هو من أشرف علوم العباد
وليس بعد علم التوحيد أشرف منه وهو لا يناسب إلا النفوس
الشريفة .» -و قال ابن القيم في مدارج السالكين (1/ 499)
«الدين كله خلق , فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في
الدين , وكذلك التصوف» . قال أبو بكر الكتاني : « : التصوف
خُلِقَ فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف.» وقيل
: التخلي من الرذائل والتحلي من الفضائل.» إلي أن قال :

قال شيخ الإسلام «أي شيخ الإسلام الهروي الصوفي» :
«واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم : أن التصوف هو
الخلق ، وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحد وهو: بذل
المعروف وكف الأذى»

قلت : «ومن الناس من يجعلها ثلاثة : كف الأذى
واحتمال الأذى و إيجاد الراحة ومنهم من يجعلها اثنين - كما
قال الشيخ - بذل المعروف وكف الأذى . ومنهم ومن يردّها
إلي واحدة بذل المعروف والكل صحيح .» - قال ابن القيم في
كتابه « شرح منازل السائرين » : «الصوفية ثلاثة أقسام : صوفية
الأرزاق ، وصوفية الرسوم ، وصوفية الحقائق ، وبدع الفريقين
المتقدمين يعرفها كل من له إلمام بالسنة والفقه ... وإنما الصوفية
صوفية الحقائق الذين خضعت لهم رؤوس الفقهاء والمتكلمين
فهم في الحقيقة علماء حكماء».

- و قال عن الصوفية و الفقراء في مدارج السالكين
(ج2 ص 368) «ثم إنهم - في أنفسهم فريقان : صوفية وفقراء
، وهم متنازعون في ترجيح الصوفية على الفقراء أو بالعكس
أو هما سواء ، على ثلاثة أقوال :- فطائفة رجحت الصوفي ،
منهم كثير أهل العراق ، وعلى هذا صاحب العوارف وجعلوا

نهاية الفقير : بداية الصوفي- . وطائفة رجحت الفقير , وجعلوا الفقر لب التصوف وثمرته , وهم أكثر أهل خراسان- . وطائفة ثالثة , قالوا : الفقر والتصوف شيء واحد , وهؤلاء هم أهل الشام»- . و قال في مدارج السالكين (ج1 ص199) وهو يصف الشيخ عبد القادر ب- الشيخ - العارف - القدوة : «وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني: «الناس إذا وصلوا إلي القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فانفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق , والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون مستسلما للقدر» . - قال ابن القيم في مدارج السالكين (ج3 ص334) في تعريف العارف بالله عند الصوفية : «فالعارف - عندهم - أي الصوفية , من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله , ثم صدق الله في معاملته , ثم اخلص له في مقصوده ونياته , ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته , ثم تطهر من أوساخه ومخالفاته , ثم صبر على أحكام الله في نعمه و بليّاته , ثم دعا على بصيرة بدينه وآياته , ثم جرد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله , ولم يشبها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم و معقولاتهم , ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته . فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة - إذا سمي به غيره على

الدعوى والاستعارة.» - قال ابن القيم في مدارج السالكين (ج3 ص335) «قال بعض السلف : نوم العارف يقظة، وأنفاسه تسبيح ، ونوم العارف أفضل من صلاة الغافل. وإنما كان نوم العارف يقظة لان قلبه حي وعينه تنامان وروحه ساجدة تحت العرش بين يدي ربها وفاطرها ، جسده في الفرش وقلبه حول العرش.»- وقال ابن القيم في مدارج السالكين (ج3 ص335) في الانتفاع بمجالسة العارفين : «وقيل : مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الغفلة إلى الذكر ، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن سوء الطوية إلى النصيحة».

- قال ابن القيم في المدارج (1/139) عن فناء الصوفية : «والفناء الذي يشير إليه القوم ويعملون عليه : أن تذهب المحدثات في شهود العبد وتغيب في أفق العدم كما كانت قبل أن توجد ويبقى الحق تعالى كما لم يزل ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضا فلا يبقى له صورة ولا رسم ثم يغيب شهوده أيضا فلا لا يبقى له شهود ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات وحقيقته : أن يفنى من

لم يكن ويبقى من لم يزل حتى قال : وليس مرادهم فناء وجود ما سوى الله في الخارج بل فناؤه عن شهودهم وحسهم " .

ونختم أقواله بامتداحه طريق التصوف و تحذير مخالفهم من الفهم السقيم عنهم إذ يقول في مدارج السالكين (ج3 ص330) ما نصه :

«فاعلم أن في لسان القوم «أي الصوفية» من الاستعارات وإطلاق العام وإرادة الخاص , وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ما ليس في لسان احد من الطوائف غيرهم , ولهذا يقولون : «نحن أصحاب إشارة ولا أصحاب عبارة , و«الإشارة لنا والعبارة لغيرنا».

وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد ويريدون بها معنى لا فساد فيه . وصار هذا سببا لفتنة طائفتين : طائفة تعلقوا عليهم بظاهر عباراتهم فبدّعوهم وضللوهم . وطائفة: نظروا إلي مقاصدهم ومغزاهم فصبوا تلك العبارات وصححوها تلك الإشارات , فطالب الحق يقبله ممن كان ويرد ما خالفه على من كان.»

و نكتفي بهذا القدر من أقوال ابن القيم - رحمه الله
- في تعظيم شأن الصوفية و طريقتهم ، و كيف لا و قد كان
مريدا لهم ثم لشيخه ابن تيمية - رحمه الله -

أما موقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب من
التصوف ، فهو موقف لا ينكر الطريقة الصوفية كما جاء في
كتاب « الهدية السنية » ما نصه : « ولا ننكر الطريقة الصوفية
وتنزيه الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح
مهما استقام صاحبها على القانون الشرعى والمنهج القويم
المرعى، » إلا أننا لا نتكلف له تأويلاً في كلامه ولا في
أفعاله، ولا نعول ولا نستعين ونستنصر ونتوكل في جميع أمورنا
إلا على الله، وهو حسبنا ونعم الوكيل ونعم المولى
والنصير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . »

لكنه مع عدم إنكاره للطريقة الصوفية إلا أنه
يستدرك بالقول : « إلا أننا لا نتكلف له تأويلاً في كلامه ولا في
أفعاله، ولا نعول ولا نستعين ونستنصر ونتوكل في جميع أمورنا
إلا على الله، وهو حسبنا ونعم الوكيل ونعم المولى والنصير،
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، » وهذا لأن
منهج السلفية الوهابية هو الوقوف على ظاهر النصوص و عدم

اعتماد التأويل فيها ، كما هو شأنهم مع المتشابه في القرآن الكريم و الحديث الشريف فهم لا يقرون المجاز في كلام العرب ، على الرغم من أن ابن القيم كما أشرنا من قبل يلتمس الأعذار للصوفية في نظام تعبيرهم الرمزي ، وكذا شيخه ابن تيمية في تفسيره لحالة الفناء الصوفي فلا يؤاخذانهم في ذلك .

و على كل حال ، فالسلفية الوهابية المعاصرون يقوم إنكارهم على الصوفية بسبب جهلهم بمذهب إمامهم ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، فلو قرأوا كتاباتهما في هذا الشأن وتأملوها لما ناصبوا الصوفية العدا و لا أنكروا ما لا سبيل إلى إنكاره .

و يكفي أهل السنة والجماعة أن كثيرا من أئمتهم الكبار قديما و حديثا كانوا متصوفة على نهج الإسلام، فجمعوا بين المراتب الثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان، وهذا إمام المفسرين فخر الدين الرازي في كتابه « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » يثني على الصوفية فيقول: « والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية ويجتهدون إلا يخلو سرهم وبأهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم منطبعون علي كمال الأدب مع الله تعالى وهؤلاء هم خير فرق الأدميين " .

الهوامش

* إن تسمية الوهابية بأتباع السلف أو أهل الحديث أو أهل الأثر تطلق عليهم تنزلاً ، لا حقيقة لأنهم يميلون إلى الاعتقاد بنظرية ابن تيمية في الصفات القائمة على القول بحقيقة ألفاظ الصفات المتشابهة ، لا مجازيتها في حق الذات الإلهية ، فيجوزون الكيفية فيها ، و لا يسلّمون بوجود المجاز في القرآن و كلام العرب ، و لذلك يبطلون التأويل ، و يرفضون التفويض في الصفات ، و يتهمون غيرهم من السادة الأشعرية و الماتريدية بالتعطيل . و لذلك خالفوا أهل السنة و الجماعة ، سلفهم و خلفهم في هذه المسائل و غيرها .

* عقد القشيري في رسالته بابين في بيان عقيدة الصوفية ، سمى الأول : أقطاب الصوفية و علم التوحيد ص. 24 أما الثاني فسماه : بيان عقائد أقطاب التصوف في مسائل التوحيد ، ص. 38 ، و ذلك لتحديد مذهب الصوفية في العقيدة ألا و هو المذهب الأشعري . و يعدّ القشيري أول من ربط بين التصوف و المذهب الأشعري . ينظر الرسالة القشيرية ، تحقيق عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف ، مطابع مؤسسة دار الشعب ، القاهرة ، 1989 .

1 - أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، تحقيق و تصحيح سعد كريم الفقي ، دار ابن

* هي من مقولة تنسب إلى الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - ، و نصها كما يأتي : «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقّق » ، و ذلك في كتاب : (الشفا للقاضي عياض) شرح ملا علي القارئ ، ج5 ص 408 ، تحقيق عبد الله محمد الخليلي ، ط. أولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2001 .

² - ينظر الموقع الإلكتروني للعثيمين :

http://www.ibnothaimeen.com/all/noor/article_679.shtml

³ - ابن تيمية ، مجموع فتاوى ابن تيمية ، دراسة وتحقيق :عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية 1416 - هـ/ 1995م .

⁴ - ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق رضوان جامع رضوان ، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ، القاهرة

